مُقَدِّمَة

اللهم إني أسألك جِدًّا مقرونًا بالتوفيق، وعِلمًا بريئًا من الجهل، وعملًا عريًا من الرياء، وقولًا موشحًا بالصواب، وحالًا دائرةً مع الحق، وفطنة عقل مضروبة في سلامة صدر، وراحة جسم راجعة إلىٰ روح بال، وسكون نفس موصولًا بثبات يقين، وصحة حجة بعيدة من مرض شبهة، حتىٰ تكون غايتي في هذه الدار مقصودة بالأمثل فالأمثل، وعاقبتي عندك محمودة بالأفضل فالأفضل، مع حياة طيبة أنت الواعد بها ووعدك الحق، ونعيم دائم أنت المبلغ إليه.

اللهم فلا تخيب رجاء من هو منوطٌ بك، ولا تصفِّر كفًا هي ممدودة إليك، ولا تُذِلَّ نفسًا هي عزيزةٌ بمعرفتك، ولا تَسلبْ عقلًا هو مستضيء بنورِ هدايتك، ولا تُعم عينًا فتحتها بنعمتك، ولا تحبِسْ لسانًا عوَّدتهُ الثناءَ عليك، وكما أنت أولىٰ بالتفضِّلِ فَكُن أحرىٰ بالإحسان: الناصيةُ بيدكَ، والوجهُ عانٍ لكَ، والخيرُ متوقعٌ مِنكَ، والمصيرُ علىٰ كل حالٍ إليكَ.

ألبِسْني في هذه الحياة البائدة ثوبَ العصمةِ، وحلِّني في تلك الدار الباقية بزينةِ الأمنِ، وأَفْطِم نفسي عن طلب العاجلةِ الزائلةِ، وأَجْرِني علىٰ العادةِ الفاضلةِ، ولا تجعلني ممَّن سها عن باطنِ ما لكَ عليه، بظاهرِ ما لكَ عنده، فالشقيُ مَن لم تأخذْ بيدهِ، ولم تؤمِّنْهُ من غدهِ، والسعيدُ من آويته إلىٰ كنفِ نعمتكِ، ونقلتهُ حميدًا إلىٰ منازلِ رحمتكِ، غيرَ مناقشٍ لهُ في الحسابِ، ولا سائقٍ لهُ إلىٰ العذابِ، فإنَّكَ علىٰ ذلكَ قديرٌ[1].

وصلاةً وسلامًا علىٰ سيِّدِ الأنامِ كُلِّهم، مَن خُتِمت به رسالاتُ النبوةِ والاصطفاءِ تشريفًا، وعُلِمت بفضلِ عُلومِه أسبابُ السعادةِ فهمًا وتكييفًا، وعلىٰ آله الطيبين

(١) من مقدمة (البصائر والذخائر) لأبي حيان التوحيدي.

وأصحابه الغُر الميامين ومن اتبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، وبعد؛

فإنَّ العلاقة بين فِرق المسلمين -علىٰ اختلاف مشاربهم-، شهدت في المسار التاريخي لهذه الأمة تموجات وانتقالات دائبة بين التواصل والقطيعة، وبين الصِدام والمسالمة، حتىٰ ليُخيَّل إليك أنَّهم حين يتذكَّرون المشتركات التي بينهم في الدين (نحو الاتفاق علىٰ إلهٍ واحد، ونبي واحد، وقِبلة واحدة . . . الخ)، وفي الهُوية والانتماء والمصير المشترك -أقلها أمام عدوهم الذي لا يرىٰ فيهم مهما تباينت آراؤهم إلا تمثلًا للإسلام-، فإنَّهم يتعايشون ويتعاونون، ويدَّخرون تعكير صفوهم إلىٰ يوم صفائهم، وإن هم تناسوا هذه المشتركات وانجرفوا وراء الطغيان المذهبي الكامن في نفوسهم، فاستقوىٰ بعضهم علىٰ بعض، فدونك ما تراه وما تسمع به من البغي والطغيان، والاستطالة بباطلٍ يزينونه بزينة الإيمان، فيطيعون الله تعالىٰ -زعموا- ولكن من حيث يُعصىٰ، وتُستحل محارمه!

وكلُ هذا يجري منهم، وتقترفه نواصيهم الآثمة، ما دامت السياط بأيديهم، والصولة لهم، وسُعار الانتصار للمذهب يفتك بهم، والانتشاء بسحق خصومهم يُطيش بعقولهم، كما أخبر الله تعالىٰ عن حال هذا الإنسان حين يطغىٰ ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

والحال في الجدل والمناظرة بين هذه الفِرق والطوائف في زماننا هذا بات أقبح من الاستقواء بالسياط والسِنان، والاحترابِ بين أهل الدين الواحد، فدُونك جُبَّ القذر[1]، كلما نبشته لتغسل ما فيه، ظهر لك ما يُكدِّر خاطرك.

والمقصود أن يُقال: إنّ الطائفية تسلب من الإنسانِ أجمل ما فيه، وإنَّما قلت (الإنسان) ولم أقل (المؤمن)، لأنَّ الفتنة الطائفية من شأنها أن تنزع عن المؤمن لباس التقوىٰ وتكشف سوءته بكلِّ ما فيها من قبح، كما إنَّ من شأنها أن تنزع عنه إنسانيته فيغدو وحشًا ضاريًا، ينهش في جسم ضحيته بلا رحمة، بطريقة وحشية دموية أنانية تتساقط أمامها كل القيم الإنسانية.

وإذا كنا نستشنع وحشية المغتصب الذي يسلب المرأة عفتها بالإكراه والتخويف

(١) أي: البئر الذي توضع فيه القذارة.

أو الابتزاز، فإنَّ ثمة دينًا -هو أغلىٰ ما نملك- تكالبت عليه ذئابُ الطائفية المسعورة، فاغتصبته بكل قسوة ووحشية، وهو يستصرخ أبناءه طالبًا منهم النجدة والنصرة، فما تجد -علىٰ كثرتهم- غيورًا ينتفض لأجله، ولا ناصرًا ينصره.

إنها الطائفية بصورتها الحقيقية المفزعة والمخزية.

إنها لتسلب العفة من أهلها . . كما تسلب من علماء الأمة ومصلحيها وبسطائها بل وسوقتها، أسمىٰ ما لديهم من براءة فطرية وفضائل إيمانية، وتبدلهم مكانها جدلًا وسوءَ ظنٍّ وتكفيرًا وتنفيرًا . .

إنَّ التقاتل الطائفي علىٰ الماضي هو تزاحمٌ علىٰ أبواب المستقبل، لكن بطريقة الرعاع والغوغاء الذين لا يرضون إلا بالشجار والشغب، ولذا قال أحد الفضلاء: «إنِّي والله ما رأيت من شيء أذهبَ لدينٍ، ولا أنقصَ لمروءةٍ، ولا أضيعَ للذةٍ، ولا أشغلَ لقلبٍ من خصومة»[1].

ولهذا كُلِّه؛ فإنَّه ليست الغاية من هذا السِفر الواقعِ بين يديك؛ ولا الثمرة المرجوة منه هي إثارة الكراهية بين المسلمين أو إشعال فتيل آخر للنعرات الطائفية والمذهبية التي اكتوت الأمة الإسلامية بنارها ردحًا من الزمان ولا زالت، ولا تكريس القطيعة الوجدانية بين طوائفهم أو فِرقهم -مهما كان الموقف من عقائدها رفضًا أو قبولًا-، **فإنَّ الغاية بعد رضا الله تعالىٰ من هذه الدراسة هي تحرير مواطن النزاع بين أهل الملة الواحدة، والإجابة علىٰ تساؤلات بقيت جاثمة علىٰ صدور المتصدِّين للخلاف المذهبي من كلا الفريقين، لنقصٍ في أحد ركني بيان الشرع أو كليهما: العلم والعدل.**

فإنَّ العدل واجب لكل أحدٍ علىٰ كل أحدٍ في كل حال. والظلمُ محرمٌ مطلقًا، لا يُباح قَطُ بحال كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨][2].

والمعيار الذي نرتضيه حكمًا وقاضيًا علىٰ الخلاف الواقع بين المسلمين -علىٰ

---

(١) الصمت (١٥٨) وذم الغيبة والنميمة (٢٠)، وكلاهما لابن أبي الدنيا.

(٢) منهاج السنة النبوية: ١٢٦/٥

اختلاف مذاهبهم العقدية والفقهية- هو ذاك الذي يجعل الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والسنة النبوية الشريفة الصحيحة، نُصب العين، وحكمًا علىٰ الكل، وما سوىٰ ذلك من زيادات فهي قراءات بشرية واجتهادات لا ينبغي أن تتخذ حدًّا فاصلًا بين الحق والباطل، وميزانًا يوزن به الخَلق.

ومن هذا المنطلق؛ فإنَّ السبيل الحق الذي نرتضيه منهجًا في التعاطي مع المخالف المسلم أو الحكم عليه هو ذاك الذي أشار إليه **العلامة المقبلي** رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: (اللهم إنَّه لا مذهب لي إلا دين الإسلام، فمن شمله فهو صاحبي وأخي، ومن كان قدوة فيه عرفت له حقه، وشكرت له صنعه، غير غالٍ فيه ولا مقصر، فإن استبان لي الدليل، واستنار لي السبيل، كنت غنيًا عنهم في ذلك المطلب، وإن ألجأتني الضرورة إلىٰ الرجوع إليهم وضعتهم موضع الأمارة علىٰ الحق واقتفيت الأقرب في نفسي إلىٰ الصواب بحسب الحادثة، بريئًا من الانتساب إلىٰ إمام معين، يكفيني أنَّي من المسلمين، فإن ألجأني إلىٰ ذلك الله، ولم يبق لي من إجابتهم بد، قلت: مسلم مؤمن، فإن مزّقوا أديمي، وأكلوا لحمي، وبالغوا في الأذىٰ، واستحلوا البذا، قلت ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، ﴿لَا ضَيۡرٌۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠]، وأجعلك اللهم في نحورهم، وأعوذ بك من شرورهم، ربِّ نجنِّي مما فعله المفرّقون لدينك، وألحقني بخير القرون من حزب أمينك ﷺ)[1].

والكتاب يصبو راقمه إلىٰ الإجابة علىٰ سؤالٍ قديمٍ طرحه بعض أكابر علماء الإمامية[2] عن **سبب إعراض جمهور المسلمين عن اتباعٍ مذهب الإمامية في الأصول والفروع؟**

وقد جرت العادةُ في الإجابة علىٰ مِثل هذه الأسئلة؛ أن تكون متشنِّجة، لورود هذه الأسئلة عادة مورد المحاججةِ والإلزامِ والتقريعِ، لا مورد السؤالِ والتبينِ والتفقهِ.

فضلًا عمَّا يسبقها أو يلحقها من الإساءة والتنقيص من مقام الصحب الكرام رضوان الله عليهم أو أئمة وعلماء أهل السنة من السابقين واللاحقين.

---

(١) العلم الشامخ في تفضيل الحق علىٰ الآباء والمشايخ: ص٧.

(٢) وأبرزهم: السيد عبد الحسين شرف الدين (١٣٧٧هـ) في كتابه (المراجعات).

فما من لائمٍ يلوم مُكافئًا بالسوء مَن أساء إليه وبغىٰ وتعدَّىٰ.

وفي هذا الصدد أود أن أشير إلىٰ أنَّ المكتبة الإسلامية لم تخلُ من دراسات تتقاطع في موضوعها، أو تختص بالبحث؛ في المذهب الجعفري الفقهي، إلا أنَّ الملاحظ علىٰ تلك الدراسات أنها لم تستوفِ هذا الموضوع بالتحليل الكافي، وعُنيت في أغلبها بالبحث في المفردات الفقهية بالمذهب الإمامي، وبخاصة مسألتي المتعة والخُمس، واهتم سائرها ببيان أثر المذهب العقدي علىٰ الفقهي[1]، وسيما ما يتعلق بالأصول الأساسية: (الإمامة، والعصمة، وتحريف القرآن . .).

ولكن تبقىٰ الملاحظة الأساسية حول الدراسات المتعلقة بهذا المجال، أنّها لم تتناول المذهب الجعفري بالبحث التاريخي من جهة نشأة المذهب، وعوامل بروزه وسِماته العامة، وكذا -وهو الأهم- ما يتعلق بالإشكالات البنيوية في المذهب علىٰ مستوىٰ منهج التلقي وقواعد الاستدلال، وهذا هو الذي توخَّيناه في هذا البحث.

وبملاحظة ما تقدَّم إلا أنّه يحسن أن أنوِّه بكتابين من ضمن الدراسات التي سبقت الإشارة إليها باعتبارهما من الكتابات المفيدة في هذا الموضوع، وإن كانت تلك الفائدة في غالب الأحيان ضمنية لا تصريحية فيما يتعلق بما نروم تحقيقه في هذا المجال، وهما:

الأول: رسالة طُبِعت باسم (غرائب فقهية عند الشيعة الإمامية)، وكُتِب علىٰ طُرتها أنَّها للعلامة العراقي محمود شكري الألوسي (١٣٤٢هـ)، وقد استلها من كتابه (السيوف المشرقة) وأفردها بهذا العنوان محققه د. مجيد الخليفة.

والصحيح أنَّ كتاب (السيوف المشرقة) هو اختصار لكتاب (الصواقع المحرقة) للعلامة الهندي محمد خواجه نصر الله الحسيني الصدِّيقي الهندي ثمَّ المكي، وبهذا الاعتبار كان الأجدر بأن تُنسب الرسالة المُستلة من المختصر إلىٰ كاتب الأصل لا المُختَصِر.

وليس بين يدينا ترجمة للعلامة محمد خواجه رَحِمَهُ اللَّهُ، لكن كتابه يشهد له بحسن التتبع

---

(١) مثل كتابي د. علي السالوس: (مع الاثني عشرية في الأصول والفروع) في مجلدين ط دار الفضيلة بالرياض، و(أثر الإمامة في الفقه الجعفري وأصوله) ط دار الثقافة بقطر.

والاستدلال وسِعة العلم، ولا يضرّه أن لا يكاد يُعرف اليوم، فحسبه أنَّ الله تعالىٰ يعرفه، فإنَّ الله تعالىٰ أخبر نبيه ﷺ عن أنبياءٍ اصطفاهم لرسالته لا يعرفهم فقال: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]، فليس من الضرورة أن تكون مشهورًا تُعرف، المهم أنَّ الله تعالىٰ يعرفك.

والرسالة تُمثِّل المقصد السابع من كتاب (السيوف المشرقة) وعنونها المؤلف بـ (بابٌ في بيان ما يدل علىٰ بطلان مذهب الشيعة)، وفيه تناول المؤلف المسائل الفقهية عند الشيعة الاثني عشرية، وقد رأىٰ المحقق -كما صرَّح بهذا في مقدمة الرسالة- أن يجعل العنوان لهذا الجزء المستل هو (غرائبُ فقهيةٌ عند الشيعة الإمامية).

والرسالةُ نفيسةٌ باعتبار جَمْعِها جُلَّ ما يراه علماء أهل السنة شذوذاتٍ فقهية في المذهب الجعفري، وهي تُنبئك عن اطلاع واسعٍ للمؤلف علىٰ المدوَّنات الفقهية الإمامية، ندر أن تراه من عالمٍ سُني، وفي تلك الفترة من الزمان، حيث نُدرة توفر الكتب الشيعية المطبوعة.

ولكن باعتبار كون الرسالة مُستلة من كتاب، وليست تأليفًا مستقلًا، فالمؤلف لم يُعطِ الموضوع حقه في العرض والتحليل والنقد، وإنَّما تمركز الحديث فيه حول انفرادات فقهية شيعية إمامية تُحكىٰ ويُعلق عليها بتعليقات مختصرة.

وقد أثرىٰ المحقق الرسالة بتوثيق نصوصها، وعزوها إلىٰ مواطنها في بطون الكتب، وترجمة رجالها، والاستدراك علىٰ المؤلف أحيانًا، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله تعالىٰ.

الثاني: كتاب (أسطورة المذهب الجعفري) تصنيف الشيخ العراقي د. طه الدليمي، والكتاب رغم قسوة عِنوانه وكونه مستفزًا للطرف الآخر؛ فيه لفتاتٌ ذكيةٌ، ونُقُولٌ رائعة -رغم صِغره-، وهو كتابٌ سجاليٌ؛ أراد مُصَنِّفه إثبات ضَعف المذهب وتناقضه واتساع دائرة الخلاف فيه علىٰ خلاف ما يُحكىٰ عنه، فمقامه مقام الرد والمحاججة والجدل المذهبي لا مقام البحث التاريخي والمنهجي للمذهب الجعفري.

ولهذا فإنَّ النفس -بعد استعراض هذه الدراسات- تاقت إلىٰ شيء أعمق مما مرَّ بها، إلىٰ حفرٍ في تاريخ النشأة وظروفها وبِنيتها المعرفية الأولىٰ ثمَّ ما آلت إليه، بحثًا

عن جعفر الصادق، أين هو؟ وأين يكمن في تلك المدوَّنات الروائية والفقهية التي تمثَّل فيها عقيدةً وفقهًا وظهورًا؟ ما الظروف الدينية والسياسية التي عاشها؟ ما معالم فقهه وماذا بقي منه؟

فكانت هذه المحاولة . . . وكان هذا الكتاب.

المؤلف

١٥ محرم ١٤٣٨هـ

٢٠١٦/١٠/١٦م